وجه آخر للصحراء في أعمال إبراهيم الكوني

الدكتور لحسن كرومي

جـامعة بشار - الجزائر

"الصحراء تتغير كل لحظة ، تتكون في كل لحظة عالم في مرحلة التكوين المستمر".

[عبد الرحمن منيف . تقاسيم الليل والنهار 68 .]

يعد إبراهيم الكوني أكثر الأدباء العرب اهتماما بالصحراء،حيث تشكل أبعادها المختلفة عالمه السحري الأثير فهي ظاهرة مهيمنة في كتاباته السردية:الخروج الأول إلى وطن الرؤى السماوية،السحرةج1،السحرة ج2،المجوس ج1، المجوس ج2،خماسية الخسوف،نزيف الحجر القفص،الخروج الأول،الدمية،الفم، برالخيتعور،واو الصغرى،التبر،خريف الدرويش، فتنة الذؤان، الفزاعة.البحث عن المكان الضائع...

لقد أعاد الكوني صياغة المكان وفق رؤية جديدة، اتخذت صورا مثالية وإنسانية وتجاوز بها المسافة الجغرافية المجردة للأماكن إلى كونها تشكيلا روحيا ووجدانيا يزخر بالحياة، فاستنطقها ونقل أحاديثها عبر كتاباته الإبداعية الثرة.

تتسم أعماله باتساع رقعة النسيج القصصي،واتساع المكان فيها،فهو مترامي ترامي الصحراء،يختلط فيها أسلوب الحكي بالفن الملحمي، الذي يقوم على الرؤى الشعرية الشفافة.فكأن تلك الأعمال،تجسيد لحالة من حالات الوجود البشري في بكارته الأولى، متمثلا في أجيال متعاقبة لقبائل الطوارق، المنتشرة بالصحراء الكبرى"الحمادة الحمراء".إن الحيز المكاني الذي تدور فيه الأحداث الروائية،

واسع جدا، فهو يتحدد شرقا ب"الأهقار" و"تمنغاست" (الجزائر)، وجنوبا بتنبكتو(مالي)حاليا وكانو (نيجيريا) و اقادس (النيجر)، وبحيرة تشاد، وشمالا بالحمادة وغربا بفزان(ليبيا). هذا الفضاء اللامحدود واللامتناهي هو فضاء الرواية... يعد البعد النفسي أكثر أبعاد الصحراء حضورا، فلا شك أن العابر بقوته وضعفه، وقيمه وأحلامه وهواجسه وقلقه... ومجابهته لهذا "التيه" وحيدا ملفعا بأحزانه،لا شك أن الإنسان بمواصفاته المذكورة هو أكثر ما يستقطب اهتمام الكاتب في فضاء ممتد كالأبد.

أن الكاتب لم يقدم وجها وحيدا للصحراء.ذلك أنه إلى جانب الوجه المشرق الجميل المرسوم لهذا الحَيز المكاني العجيب،نلفي آخر مختلف،فالخطاب الروائي يشير إلى أن الصحراء ليست على درجة واحدة من الشدة واللـين و الخصوبة واليباب...فالصحراء الرملية تختلف اختلافا بينا عن صحراء الحمادة:"**الصحراء الرملية لا تعد بشيء.الصحراء الرملية خائنة.عدم.لا عشب،ولا شجر بري،ولا حيوانات برية.صحراء الحمادة جنة بالمقارنة مع هذه الجاحدة.إذا لم تجد شاة غزال أو ودانا،أعطتك أرنبا.وإذا لم تجد أرنبا استضافتك بعظاءة.وإذا كان الفصل لا يناسب ظهور العظاءات دعتك إلى مائدة خضراء بالعشب.وإذا بخلت السماء بالأمطار رحمتك بنبق السدر من ثمار العام الماضي.يا إلهي.ما أرحم الحمادة.ولكن الصحراء الرملية لا تطعم إلا الرمل والغبار والقبلي**" (1).

فالصحراء، والحالة هذه، ترمز لمعاني المجهول، والخطر المترصد، والركود والعزلة وموت الزمن...ولعل من أبرز مميزات هذا المكان، ارتباطه بالعدوان على

حرية الآخر؛ كانت الصحراء قديما حيزا لا يخلو من غرابة لكونه يفتقر إلى كثير من الضوابط التي تضبط علاقات المتحيزين فيه الأمر الذي جعل المستضعفين عرضة لكل ما يسلبهم حريتهم وإنسانيتهم. وقد أشارت بعض أعمال الكوني إلى ظاهرة قطاع الطرق و الرق،بوصفه أحد تجليات هذه الظاهرة،على نحو ما يتجلى في الملفوظ الآتي:"**أراد أحد أصحاب القوافل يجزل العطاء مقابل الماء؛فوضع إلى جواري امرأة قائلا إنها أمة اشتراها بماله في بلدان الأدغال,وقرر أن يتركها بين يدي لتكون لي في دنياي عونا...**" (2).

من تجليات هذا الوجه الآخر للصحراء :

- **الإطلاقية المكانية:** ليست الصحراء بالمكان المحدد ،فقد شكلت حيزا مفعما بفراغ لا يكاد يحد وجعل ذلك الصحراء غامضة إلى حد بعيد،ولا يحيط بها إلا الذين يعايشونها، ومن هنا كانت لغزا محيرا لكثير من الناس وكانت رمزا لكل ما هو متسع وخاو ومخيف،ولعل إثارة مخاوف العابرين من الصحراء عائد، في الأساس،إلى هاجس الإحساس بالضآلة أمام الإطلاقية المكانية و"هلع الفراغ" الذي يعد سمة بارزة من سمات الصحراء،وكذا القلق الناجم عن الخوف من احتمالات الضياع في أفيائها الممتدة كالأبد...فالصحراء ،في نظر أصحابها حيز قاس اختلط في إهابه الزمان والمكان و العدم ... تحدثت أعمال الكوني عن الأمداء الشاسعة،والوحدة المستحكمة، وما تتركه من أحاسيس ومشاعر مفعمة بالانكسار في دواخل العابرين.فالصحراء مظنة التيه،تمثل التجسيد الأمثل لفكرة الفراغ،أليس الفراغ حالة من حالت العدم؟

"استمرت الصحراء تتمدد و تتباعد طوال السفر، العراء الفسيح القاسي الأبدي، يلد في نهايته أفقا لئيما.والأفق يلد،بعد مسير،الأفق. وكلما توغلا في الرحلة،كلما ازداد الأفق خلودا،وإصرارا على التوالد.في البرزخ الممدود بين العراء والأفق، تمدد السراب ومد لسانا لعوبا لا يتوقف عن الغمز والتغنج والإغواء"(3) يكشف هذا الملفوظ السردي، وغيره كثير،عن قسوة الحيز المكاني وجبروته،فالمفازة فراغ مراوغ،لا يكف عن الحصار،يمتد بالوجود ويسحب الألفة...ويبعث على الرهبة والوجل...إنها الآفاق الواسعة التي لايحدها الخيال،و الأمداء التي لا يحدها حد، هكذا سيرى الناظر إليها والواقف فيها فكيف يكون إحساس التائه في هذا الفراغ المخيف،وكيف تواجه القوافل قدرها في الصحراء، حين تضل الطريق، أو حين ينقطع بها السبيل، أو يجف عنها الماء، أو يضيع بها الدليل؛ فأي تيه في البيد يعني الموت المحقق...لقد جعلت الروايات الصحراء مكانا بؤريا بسبب ما تتمتع به من خصوصية مشهدية تنفتح باتجاهات فكرية الرحابة القصوى؛ بالإضافة إلى أنها مكان مفتوح يبدو للرائي بلا نهاية ويبدو غير قابل لمطلقية الإحاطة وضبط التخوم. (4) "بعد رحلة استمرت تسعة أيام،استطاع أخود أن يقطع أكثر من نصف المسافة نحو وادي الجعيفري.كانت البيداء تمتد أمامه في إصرار وعناد كأنها تتحداه ولا تنوي أن تنتهي،تمتد أمامه وتطارده من الخلف أيضا.وتنتشر حوله وتغرقه في متاهة أبدية شاملة"(5) تتبدى الرحلة في أعمال الكوني بوصفها خلاصا لذات العابر المنهكة و الباحثة عن حميمية مفتقدة واحتماء ضد المحو وقسوة الزمان وجبروت المكان وهلع الفراغ...

إنه الفراغ المخاتل الذي لا يمكن الإحاطة به، فهو يغضي على الغمرات والأقذاء ، ويبعث على الإحساس بالاستيحاش والشعور بالضآلة والتلاشي في فضاء كهذا ؛ حيث القفر والماء النزر... لقد بدأ إحساس العابرين بضياع أبدي مذ ضاعت **"واو"**، و رمى بهم القدر في طريق التيه ،الذي أذكى في نفوسهم حدة الإحساس الفاجع بالاغتراب في هذا الوجود الشرس الذي لايرحم. فالصحراء مثل الدنيا حيز طارد ... لقد أدرك (المهاجرون الأبديون) كنه هذه الحقيقة وقالوا بنبرة شجية صادرة عن حس مأساوي رهيب: **"الصحراء ولدت صحراء لتطردنا .الصحراء خلقت صحراء لتستدرجنا إلى المتاهة وتذهب بنا في سبيل اسمه العبور"**(6). فالصحراء بوصفها حيزا مكانيا يفتقر على معاني الحماية،يتضمن في ماهيته اللامكان ، لذا ترى "الراحلين الأبديين"كما يسميهم الكوني،يمارسون غواية التيه في رحلة لا تعرف لا تعرف التوقف. لقد ارتبطت الرحلة/ العبور بدلالة فلسفية، فهي موظفة بوصفها رمزا دالا على عبثية الحياة...وهكذا فإن الصحراء موطن الحلم والوهم،تحمل في أعمال الكوني رمزا أو بالأحرى عدة رموز حية مكتنزة بالدلالات الحاضرة و المؤجلة؛ففراغ البيداء يقابله امتلاء العلامات في النص.

- وعورة المسالك: تضاف إلى الامتدادات الرحبية الرهيبة،التي تتميز بها الصحراء،شراسة التضاريس وصعوبة المسالك.فهي قاسية جدا وصعبة المراس؛ لدرجة أنها تكلف المسافرين على أديمها ما لا يطيقون من المض."أفضت الشعبة الهزيلة إلى الوديان، فهوت الأرض إلى الأسفل بحدة، على جانبها ضفاف حجرية قاسية،ترتفع حينا حتى تكاد تتحول جبالا حقيقة، وتتضاءل حينا وتتواضع فتقترب من حضيض القيعان".(7) نلفي الكاتب في هذه الأنساق المشهدية حريصا على ذكر الأماكن وتضاريسها فيحدد طبيعتها إذا كانت جبلا أو سهلا أو مكانا منخفضا أو مرتفعا إلى آخر هذه الأوصاف؛ وغني عن البيان أن الوصف لم يكن محايدا،أو مجر تنميق بلا دلالة،بل إن الوصف يقوم بوظيفة دالة،وهو متآزر و متفاعل مع الأحداث وبقية العناصر الفنية الأخرى. لقد وظف الكاتب أسلوبا لا يخلو من عنف لغوي، للدلالة على صعوبة المسالك في البيد وشراستها،من مثل هوت الأرض بحدة، الضفاف الحجرية القاسية ،ترتفع/تنخفض ،(تهوي) = تقترب من حضيض القيعان.لقد وظف هذا الأسلوب لتقريب المشهد من القارئ لتمثله تمثلا حسيا؛ليدرك حجم المعاناة التي يعانيها المسافر في هذه المفاوز القاحلة الشرسة. يلجأ الكوني إلى هذه الإستراتيجية في الكتابة للتعريف بخصائص الحيز و مميزاته،و الإحالة في الوقت نفسه إلى طبيعة العلاقة بين الكائن والمكان والمتسمة بالاضطراب والتوتر، من هذا المنظور يمكن القول إن الوصف عند الكوني أداة هامة لمعرفة الحيز الصحراوي .

الصحراء حيز مكاني عجيب :

الصحراء حيز يتمتع بمقادير كبيرة من العناصر العجائبية والأسطورية.إنها فضاء يلهب الخيال،لكونه ينطوي على مظاهر غامضة تثير السؤال والأحلام

والرؤى .وقد أشار الكوني إلى أن الأسطورة خاصية من خصائص الصحراء،فـ "الصحراء دون أساطير تساوي العدم". والتفكير الأسطوري لا يرتبط إلا بالمظاهر العجائبية التي تشد العقل و تجعله في أقصى أماكن الحيرة و الذهول،على نحو ما يتجلى في قول هذه الشخصية:"**أردت أن أقول لك إن العشب ينبت في أكثر أعوام الجدب قسوة في الصحراء،وأردت أن أقول لك أيضا إن الصحراء تستطيع أن تنبت ليلا وتحجبه نهارا؛أوتطلعه نهارا وتحجبه ليلا،مسلك الصحراء عجيب يا مولاي،لأن الصحراء نفسها أعجوبة**"(8) من الواضح تماما أن الروائي يسعى إلى أسطرة شخصية الصحراء،من خلال توظيف بعض الأفعال العجائبية المنسوبة إليها،معتمدا على أسلوبية المفارقة،تنبته ليلا/تحجبه نهارا؛تطلعه نهارا تحجبه ليلا."إن الخطاب العجائبي يؤسس شعريته خارج عالم المألوف والمعقول،ويشوش على المحكي الواقعي،ينتزع منه مألوفيته،ويقذف به في عوالم الغرابة و الحيرة واللامعقول"(9) وجدير بالملاحظة أن المكان الصحراوي في أعمال الكوني السردية يتمتع بقدر كبير من العناصر العجائبية والأسطورية...وقد شكلت مناخا دافعا لصنع تخييل روائي متميز، تكاملت فيه شعرية السرد مع دلالة القص، وتمكّن بموجب ذلك من التعبير عن عوالم إنسانية لا حدّ لتنوعها ولا حصر لفضاءاتها.

الصحراء حيز التناقضات:

الصحراء فضاء طارد يتميز بالتغير والتبدل وعدم الثبات؛إنه مكان تكتنفه الأخطار في أحايين كثيرة فلطالما قل المطر وشح وجود الماء فيه،وعلى النقيض من ذلك،فقد تجتاحه سيول مفاجئة مدمرة بفعل أمطار طوفانية تستحيل حياة الناس

جراها جحيما لا يطاق..فالصحراء مكان لا يعرف الاعتدال،و"**الطقس فيها متقلب المزاج،لا أحد يستطيع أن يتنبأ في شأنه بشيء**" (10) إن الحياة في الصحراء تقوم على صراع الأضاد؛و يحتوي المكان الصحراوي على العديد من الظواهر المتعارضة و التي تعبر عن قوى متعارضة في الكون(الأمطار الطوفانية/ندرة الماء)،السكون /الغضب=شدة العواصف الرملية. شدة الحرارة،شدة البرودة،الصفاء/ الكدر أو العتمة،الصحراء الرملية /صحراء الحمادة ... وهذه المفارقات الرهيبة التي تسم الخطاب بنبرة درامية،وتبعث الرثاء في القارئ لحال العابرين،تنطوي على بعد ديني غيبي،إذ هي في نظر كثير من الشخصيات تخفي وراءها حكمة لا يعرف كنهها إلا الله الذي أحاط بكل شيء علما،ولا يريد أن يعلمها غيره. فالتناقض والتقلب وعدم الثبات، والابتلاء بالمتغيرات(المتناقضة) وانتظار الأسوأ، والحياة على حافة الخوف والتهديد والتربص...هذه هي الصحراء الغامضة المكشوفة التي تجمع المتناقضات والثنائيات على صعيد واحد؛ وضوح وغموض، أمن وغدر... "**من المعتاد يعتبر الليل أحسن مسكن للرياح.ولكن للصحراء أحيانا مزاج لا يحكمه قانون.ولا يخضع لمنطق، ولا تكبح جماحه قاعدة.إنها كالجمل الهائج لا تدري متى ينقض عليك.**" (11) يوظف الكوني المفارقة بوصفها جزءا من طبيعة الحياة،فحملها أبعادا دلالية تجسد ما يعتور حياة الإنسان في الوجود من قلق واضطراب؛ إنها فعل ذهني مرتبط بأساس جوهري وعميق في النفس التي تصوغه،مما يجعل بناء النص على المفارقة مرتبط ارتباطا وثيقا بقضية ذات اتساق بالفكر الإنساني وما يحيط به من وجود لا تغيب عن أحداثه ومكوناته صفة التناقض والتضاد والغرابة (12) يعمل الكاتب أحيانا على تحفيز انتباه القارئ وشده إليه وذلك

عن طريق شحن بعض الأحداث بنوع من الجبرية التي تمثل سمة من سمات البناء الدرامي ،الذي تتوارى خلفه مواقف فكرية أو فلسفية...

_ قال الشيخ غوما :

_ في الصحراء طردنا الجفاف ونضوب الماء في البئر.وفي الواحة طردنا الفيضان وغزارة الماء.أليس هذا غريبا ؟ وضع غوما الكأس على الأرض وقال وهو يراقب الأضواء المتلامعة في السهل: _لا أرى أية غرابة .الإنسان مطارد ما دام حيا.مطارد من الجفاف أو من الفيضان. (13) فماذا تعني هذه القدرية الطافحة في الخطاب؟ ألا تعني أن الحياة في الصحراء(الدنيا) تدور في دائرة مغلقة؟وأن الوجود محكوم بحتمية وقدر الذي لا يرد،وأن حركة الإنسان فيه عديمة الجدوى؟ يبرز الكوني في سياقات جبرية،ضعف الكائن البشري الكبير أمام سطوة القدر وجبروته،فالإنسان،في رأيه،محاصر منذ الأزل،بل إن روحه مقيدة؛على نحو ما يتجلى في قول الغزالة الحكيمة لصغيرتها في رواية نزيف الحجر :**"إن الخالق لما خلق الروح عين له حدودا وحبسه في ثلاثة سجون،الزمان والمكان والجسد"**.يعبر الكوني في أعماله الإبداعية عن المعنى الخفي والغامض لجوانب الوجود انطلاقا من حضور الصحراء؛ فالمكان يعد قطب الرحى في أعماله ،والرابط الأساسي الذي يشد مفاصلها كلها إنه متسع ومرتبط بطبقات النص ارتباط العابرين بالصحراء. فالرؤية المكانية رؤية عميقة و شاملة يتبناها المؤلف ويؤسس في ضوئها فلسفته في الحياة التي يتشربها النص ويكون معبرا عن جوهرها،بحكم ما يتوافر فيه من طاقات فنية و ما يوفره من أبعاد جمالية ودلالية لا حصر

لفضاءتها.هذا النمط من الكتابة يحض القارئ على اكتشاف أبعاد العلاقة المركبة بين الإنسان والمكان،فالصحراء تغدو فوق دلالتا المكانية الواقعية،أفقا استعاريا، يجاوز البقعة المكانية،إلى آفاق الأسئلة الوجودية المحيرة.على نحو ما يتجلى في الملفوظ الآتي: **"أمرنا لا يختلف كثيرا.جئنا إلى آدرار هربا من العطش ونغادرها هربا من الماء.بجوار أطلانطيس كنا مهددين بالموت بسبب انعدام الماء و ها نحن في الواحة مهددون بالهلاك غرقا في الفيضان.فأي غرابة في هذا؟**(14)

ألا تمثل هذه المفارقة المرة،والصادرة عن ذهن متوقد ووعي عميق للذات بما يحيط بها،حيرة وقلقا وجوديا وحسا مأساويا رهيبا كلف "الراحلين الأبديين"ما لا يطيقون من المكابدة و المعاناة!...فهم يعيشون على حافة الحياة،بل إنهم في صراع مرير مع الموت. فـ:**"الإنسان في الصحراء،لا بد أن يموت بأحد النقيضين:السيل أو العطش"**.(15) فالصحراء فضاء مرشح دوما للمتغيرات، فهو كالدنيا لا يستقر على حال، الأمر الذي أكسب العابرين روحا قلقة باحثة متطلعة دوما إلى مكان أكثر استقرارا وأمنا ؛إنه الفردوس المفقود"واو"،الذي تحول مع مرور الزمن إلى يتوبيا ،أي مكان يحلم الطوارق دوما بالعودة إليه.

يصور الكوني في رواية البئر،الحركة الأولى في خماسية الخسوف، حيرة الصحراوي أمام تقلبات الصحراء ومفارقاتها الغريبة،والملاحظ أن الكاتب يشرك القارئ في متعة الملاحظة واختراق العوالم المتحدث عنها في الخطاب، قال شيخ القبيلة بنبرة شجية:**"لكن ما يحدث أن الصحاري الجنوبية يمن عليها الله بالأمطار كل عشرين سنة أو ثلاثين سنة. وغالبا ما تكون أمطرا وحشية ضارة انتقامية تبيد**

المواشي وقطعان الإبل،وتجرف البيوت و الناس و تملأ الدنيا بالضحايا من الأرواح والخسائر والحيوانات. إنها تتحول إلى نقمة وغضب إلهي يقع على الرؤوس كمصيبة منزلة من السماء وبدل أن يعم الفرح بالسيول والأمطار التي طال انتظارها، ينذب سكان الصحراء حظهم ويبكون قتلاهم ويحزنون على مواشيهم الضائعة, ينقلب الحلم إلى مأتم شامل، حتى أن ضعاف النفوس والإيمان منهم يرددون في يأس من فقد صوابه.. ما حاجتنا إلى المراعي الخضراء،بعدما جرفت السيول مواشينا؟ ما حاجتنا إلى قطعان الغزلان إذا كانت السيول قد جرفت أمهر القناصين القادرين على صيدها؟".(16) ألا تشكل هذه الأحياز المكانية التخييلية عند الكوني،رمزا لما هو اكبر من إغواء الصحراء وريب المنون فيها؟ ألا تمثل المعادل الموضوعي للحياة و إكراهاتها القاهرة ؟ألا تتجلى الصحراء بوصفا صورة مجسدة لحقيقة الواقع الإنساني في الوجود؟ من هذه الزاوية يمكن القول إن مساحة الرمز عند الكوني شاسعة شساعة الصحراء وآفاقه رحبة وطاقاته الإيحائية كثيفة.

الصحراء شراك للموت :

الصحراء فضاء للصفاء والأفراح، والحب والشعر والأغنيات؛وقد تنقلب رأسا على عقب وتتطرف فتحول أمن الناس خوفا، كأن تفاجئهم بسيل غامر، أو بريح صرصر عاتية، أو بقيظ شديد، وقد يصبح ماؤها غورا فتغدو محطة للموت ... قال الراوي عن البطل: "عاد إلى الوطن في صحراء الشمال فلم يجد لا أهلا، ولا قبيلة ولا كلأ، الأهل بادوا، والقبيلة تشتت والأرض حرقها الجدب.فنزل إلى الجنوب، وترك نصف الإبل هميلا يبحث عن عشب سنوات القحط في الأربع الرملية

المتاخمة للواحات"(17).بانعدام الماء تأخذ البيد أقسى علاقاتها الصراعية مع الإنسان، فتغدو عدوانية،صعبة المعاشرة، تتحول إلى جحيم طارد للإنسان. فليس أصعب من الصحراء ولا أشرس، حين تنعدم فيها المياه، التي هي الحياة، فتزداد ضراوة وفظاظة بالعطش والجفاف والموت؛الأمر الذي أعطى الصحراء حضورا طاغيا في وجدان الطارق وعقله،لقد خبرها وعرف أسرارها، وذاق مرارتها، فحياته في إهابها، تكاد تكون مأساة بشرية مستمرة، وممتدة ولا خيار له فيها سوى الانتظار الصبور. وأما على المستوى الاجتماعي فإن الصحراء قد فرضت على قاطنيها وجودها القاسي،فلطالما عانوا من شدة الخصاصة والعوز لدرجة أنهم كانوا في أحايين كثيرة لا يجدون ما يسدون به رمقهم وبصورة أخص في السنوات العجاف. فتستفيض أعمال الكوني بالحديث عن تأثيرات القحط في حيوات الناس، وأوضاعهم المعيشية والنفسية وتصرفاتهم على نحو ما يظهر في الملفوظات السردية:

1- تناول غذاءه بكسرة يابسة من رغيف البارحة.وانطلق في العشي مبكرا,كما أوصى الحكيم"(18)

2- 2- "لم يستطع أن يصمد أكثر، فنزع نعله الجلدي.جمع الحطب و أوقد النار،شواه على النار حتى تلوى وانكمش ثم نهشه بشراهة.كان لذيذا.لا فرق بينه وبين جلود الإبل التي سبق له أن أكلها كثيرا.تفتحت عيناه بعد الوجبة وبدأ يبصر خيال الأبلق.خيل إليه أن الجمل يبتسم.عيناه تبتسمان. يسخر منه. قفز وهدده بسبابته:

- **إياك وأن تخبر أحدا بما رأيت ! هل فهمت؟هذا سر**"(19)وظفت السخرية هنا لمواجهة حالة درامية (أكل النعل بشراهة)،التي تشي بحالة الصراع الأبدي بين العابر والصحراء.وإن كان،في حقيقة الأمر صراعا غير متكافئ،تكون الغلبة فيه للبيداء دوما.

3- **" جمع [البطل] حطبا وأوقد نارا. جلس قدام النار وبدأ يعجن الدقيق. قبل أن يدس الرغيف في جوف الرماد**"(20)

إن الصحراء حيز قاس، يتطلب الحزم والصرامة؛إذ لا مجال فيه للتهاون وروح التواكل... ألا ترمز عملية أكل النعل إلى صعوبة الحياة في الصحراء وما، بها من شظف وقسوة ومعاناة؟أم أنها تشي بسرمدية صراع الكائن مع المكان من أجل البقاء ؟.أم أنها تدل على أن الصحراوي امرؤ يتميز بالصرامة والحزم، يخدم نفسه بنفسه، ولا ينتظر مساعدة من أحد؟ وأن هذه الخاصية اقتضتها طبيعة المكان، وتجلت أثرها على الإنسان؟ إن هذه الشخصيات وغيرها من الشخصيات الأخرى تعد جزءا من المكان الصحراوي،تدل عليه ويدل عليها؛ويتبادلان التأثير فيما بينهما.

تجليات المـاء:

الماء مصدر الحياة وعنوانها وضمان استمرارها وديمومتها،وشرط أساس من شروط الوجود. ولكونه كذلك، فهو يمثل قيمة خاصة في هذه الفضاء المتميز بالجفاف، فمن لا يعرف معنى الماء لا يعرف معنى الصحراء.و يشغل الماء حيزا كبيرا في كتابات الكوني ،وهو في رأيه"دم أضاع لونه. (21) يشكل الماء

حضورا جليا في فكر العابرين ووجدانهم،واثر في سلوكهم وصياغة مفاهيمهم الثقافية والاجتماعية...لقد أدركوا أهميته في حياتهم ومعاشهم. فيرى فيه الحفار،الذي اتخذ الأرض قرينا،سر الحياة الأولى. (22) .ويعتقد المغني"حامل الماء" أن الأخير:" كالحياة لا يباع بثمن،ولا يشترى بالمال"(23) ..ويعتقد أحد الأبطال أن الماء يفجر في الوجود شهوة الحياة لقد تساءل وهو يستحم :"كيف لم يخبرنا حكماء الصحراء البلهاء، أن أحضان الماء ألذ من أحضان النساء"(24).

يكتسب الماء قيمة دينية وأسطورية في المخيال الشعبي الصحراوي؛ فأهل الخلاء"كما يسميهم الكاتب" يعتقدون أن الماء، مقدس، وينبع من مكان مقدس،و من أفسده، ناله قصاص الصحراء."فدن أمان ويغ، إيديني تكونت ديغ"(25) . ولأهمية الماء في المفازات،نلفيه يحتل حيزا واسعا في كلام الشخصيات وأشعارهم وأغانيهم... قال الراوي:"**فدمدم بأغنية قديمة يمدح فيها الشاعر مولاه الماء بأبيات لا تخلوا من غموض...إن من حق الشاعر أن يجعل من الماء معبودا، لأنه الكائن الوحيد الذي يستطيع أن يطوف السماوات،ويهوي إلى الأسفل ليجتاح أبعد الظلمات،يتغسل بأضواء الأعالي،ويعود ليتستر بالأحاضيض،يرتاد المجهول،خالقا بالتبدد،ويعود إلى الأرض مخلوقا بالتبدي،ثم تساءل بصوت عال:"من أنت أيها الماء؟. أجاب:"ما أنت في الرحلة، أيها الماء، إلا نحن:نغترب مثلنا بالنار، وتستعيد نفسك مثلنا بأرض الوطن"**(26)

كان الكاتب يوظف الأمازيغية في سياقات معينة، لرسم ملامح فضاء خاص بالطوارق في الصحراء على نحو ما يتجلى في الأغنية التالية التي تتحدث عن قيمة الماء في حياة الكائن:

الترجمة إلى العربية :

آمـــان.. المـــاء..

و تليـم اللـون، لا لـون لـك

آمـان... المـــاء.

وتليم تيمضـي، لا طعـم لـك

آمـان... المـــاء

وتليمـت آضـو، لا رائحة لك .فمن أنت أيها الماء؟

آمـــان... قالوا لي الماء سر الحياة

مـا تـموســن آمـــان؟ قلت الماء هو الحياة

آنـنـي آمان الميغـني إن تمدورت الماء هو الحياة.

إينغاسن :آمان اينتـنيض تمدورت

آمان انتنيض تمدورت. (27)

إن هذا النص الذي يعبر عن أهمية الماء في حياة الكائن،يستدعي في ذهني كلاما يماثله للكاتب الفرنسي انطوان دو سانت إيكزوبيري Saint Exuperit

Eau !tu n'a ni goût !

ni couleur !

ni arôme !

tu n'est pas nécessaire à la vie !

tu est la vie !

الولادة والانبعاث:

الأساطير القديمة ترد خلق العالم إلى الماء :تقول الأسطورة الطارقية القديمة:" إن (عين الكرامة)هي أول واحة نشأت في قلب الصحراء. تم ذلك بعدما أشرف قوم على الهلاك جراء العطش الشديد؛و فجأة تفجر نبع من بين رجلي طفل زنجي،وغمر الوادي بالمياه العذبة واستمر الماء يتدفق من النبع الذي أطلق عليه تجار القوافل"عين الكرامة،التي يرجع لها الفضل في قيام أول واحة في الصحراء الكبرى،ومنذ ذلك اليوم السعيد بدأ يحج إليها الزوار.وتعبرها القوافل إلى تمبكتو والسودان و بلاد شنقيط(موريتانيا حاليا) وتامنغست(28)

يعد انهمار الماء في عين الكرامة ميلاد عهد جديد مفعم بالمسرات، فالماء رمز الولادة والانبعاث فزمن العطاء في الصحراء قائم على الخصب و حضور الماء.

نظر العابرون إلى الصحراء نظرة خاصة،فهم يشبهونها في مواسم الجمال،بالمرأة بوصفها رمزا للأنوثة والإثمار والخصوبة. فالصحراء، تستقبل الغيث/الماء كما تستقبل الجميلة حبيبا آب من سفر؛من هذا المنظور تكون"للماء دلالة ذكورية/فحولية في كتابات الكوني، تقابل الدلالة الأنثوية للأرض،فالماء يوقظ الخصوبة الكامنة في رحم الأرض،ويندمج الاثنان معا،على مركب واحد محمل بدلالات الخلق والانبعاث من الغياب والضمور والجدب"على نحو ما يتجلى في الملفوظ السردي الآتي: **"فاستغاثت الأرض شوقا،وند عنها فحيح،انطفأت النار المحبوسة في صدر الأرض منذ ألف عام وبدأ الوحش يحتضر،وحش الجدب والخفاف والقبلي.تنفست الصحراء الصعداء وفتحت ذراعيها لاحتضان معشوق غاب طويلا،وانتظرته طويلا"**(29) وهذا ارتفاع شاعري مشحون بجماليات المكان الصحراوي إلى حديث الروح والأنوثة والخصب والنماء والجمال الفاتن..

البـــئر :

تحضر البئر في كل الخطابات الروائية بوصفها عنصرا حيويا لا يمكن الاستغناء عنه في الصحراء إذ تغدو البئر،إذا توافر فيها الماء،عامل قوة ومنعة واستقرار للقبيلة؛ وإذا ما أصبح ماؤها غورا فتضطر إلى الرحيل بحثا عن ماء

معين في آفاق أخرى.و أما على المستوى الأمني، فإن البئر تعد سلاح الفرسان.فـ"البئر هو سر قوة القبيلة و البئر هو نقطة ضعفها أيضا" في الصحراء،زمن الحرب،من يملك البئر أو يسيطر عليها، يحوز مركز الصدارة والقوة والهيمنة.وفي هذا السياق يقول زعيم القبيلة:" إن البيد كانت دوما عونا لأصحاب الأرض الذين يحوزون الماء، على الأعداء الذين يقبلون على القبائل غزاة، المحاصر في عرف الصحراء من يقف خارج الأسوار، بعيدا عن الماء، لا من يقع داخل الأسوار، حيث يتوسد بئر الماء"(30). وهكذا فإن البئر تكتسي أهمية قصوى بالنسبة للفرد والجماعة، سواء أكان ذلك في زمن السلم، أم في زمن الحرب.فالبئر ثدي وضرها.

إن أسوء ما تستطيع أن تفعله الصحراء هو أن تشح بالماء،الأمر الذي تتحول جراءه إلى حيز مكاني هش حيز معاد بلا ظلال يذكي حدة الإحساس بفداحة الخطب المنتظر.ولقد كثرت حوادث الموت عطشا،بفعل انحباس الماء.ولعل من أكثر الأحداث درامية وفجائعية ما حدث لأحد الأبطال ذات يوم،لما عاد إلى النجع من سفر،فوجد الأهل قد هلكوا عطشا:"عاد إلى الوطن في صحراء الشمال فلم يجد لا أهلا،ولا قبيلة ولا كلأ الأهل بادوا،والقبيلة تشتت والأرض حرقها الجدب"(31)

فليس أقسى من الصحراء ولا أشرس، حين تنعدم المياه التي هي الحياة،فتزداد ضراوة وقسوة بالعطش والجفاف والموت. إن للصحراء حضورا في وجدان الطارق،لقد خبرها وعرف أسرارها، وذاق القسوة والمعاناة منها. وحياته تكاد تكون مأساة بشرية مستمرة،وممتدة ولا خيار له فيها سوى المكابدة والانتظار

الصبور. وغني عن البيان أن بواعث ارتحال القبيلة ـ في الغالب الأعم ـ تعود إلى انحباس المطر،وندرة المياه،وجفاف الآبار؛على على نحو ما يتجلى في الفقرة الآتية،التي تصور لنا مشهدا من مشاهد استعداد القبيلة للرحيل بحثا عن آفاق أكثر رواء: "جاء يوم الرحيل،فدبت الحركة في المعسكر الكبير منذ الفجر،تعالت أصوات الرجال واختلطت بهرج الأطفال والنساء وصياح المعيز وثغاء الجديان ورغي الجمال. التي بركت واستسلمت للأثقال والأمتعة والمؤن والماء صابرة ساكنة.انتشرت الصبية والصبايا عبر السهل يهشون المواشي ويجمعونها في قطعان كبيرة.تولت النساء والرجال تجميع الأمتعة وطي الخيم وحزم الأكياس والخرج و إعداد الهد وج والسروج.استيقظ الشيخ غوما مبكرا.نام البارحة نوما قصيرا متقطعا كعادته عندما ينتظره السفر في اليوم التالي. توضأ و صلى وتوجه إلي البئر قبل أن يشرب كوب الشاي الأخضر. دار حول البئر مرتين وهو يحاول أن يتبين،عبر عتبة الفجر،كل حجر مثبت في صوره الصخري.ملأ عينيه من الأحجار الكبيرة المسقولة الصماء ثم تناول حجرا و ألقى به في متاهة البئر.ظل يستمع محاولا أن يتبين ضجيج الماء عن سقوط الحجر.لم يسمع شيئا،كأن الحجر لم يسقط. كأن البئر أصبح بلا قاع، البئر أصبح بلا ماء"(32) .

لقد أضحى ماء القبيلة غورا ، فاضطرت للرحيل بحثا عن ماء معين في مكان آخر من الصحراء. لقد نجحت هذه الصورة المرسومة بهذا الأسلوب في صهر الوصف بالحدث في جريان زمني حي تمكن من تجسد مشهد الرحيل المفعم بالحركة في تجلياته الجمالية العليا.فالصورة تسهم في بلورة النبرة الدرامية

المرتبطة بالفعل/الرحيل،متداخلة معه تداخلا عضويا.وهكذا تظل ندرة الماء سمة أساسية من سمات الصحراء، وقد انعكس ذلك على نظرة الصحراوي إلى الماء فهو عنده مثل:"الشباب نعمة غير دائمة يهبها(الله) لمن يشاء، ثم لا يلبث أن ينتزعها ممن يشاء".

رمزية الطوفان :

يتضمن الطوفان دلالتين،فأما الأولى فواقعية وهي المهيمنة إذ من خلالها يعبر الكاتب عن أزمة الكائن في المكان الشرس، فيأتي الطوفان بوصفه اجتياحا فجائعيا مدمرا،بفعل السيول العارمة الجارفة التي تفاجئ أهل الصحراء وتقض عليهم مضاجعهم،على نحو ما يتجلى في الملفوظ السردي الآتي:"إن السيل الذي يأتي على هذا النحو لا معنى له.إننا لا نريده.جدير به أن يبقى هناك في الشمال يتسكع على السواحل ما شاء له الله أن يتسكع.هذا أفضل من أن يأتينا بالتنكيل والهلاك بدل الربيع والكلأ والغزلان"البئر(33) .قدت تتحول الصحراء بفعل الأمطار الطوفانية إلى حيز قمعي معاد يقود المتحيزين فيه إلى الموت.

وأما الثانية فرمزية،إذ يتضمن الطوفان دلالة الخلاص، لكونه يستأصل مصادر الشرور والآثام ويطهر أديم الأرض من الدم والدمار، ويحل الخصب والنماء والحياة محل الموت على نحو ما يتجلى في هذه النبوءة:**"أنا الكاهن الأكبر متخندوش أنبئ الأجيال أن الخلاص سيجيء عندما ينزف الودان المقدس ويسيل الدم من الحجر تولد المعجزة التي ستغسل اللعنة، تتطهر الأرض ويغمر الصحراء**

الطوفان"(34). ويتداخل السحري و التاريخي والأسطوري في رواية "أخبار الطوفان الثاني"الحركة الثانية من خماسية الخسوف،إلى حد الاندماج؛إذ "يتم التركيز على الأبعاد الأسطورية للماء في مقاربة أحداث العدوان الإيطالي على الصحراء والساحل الليبيين(35).وتنجدل العناصر الطبيعية بحوادث التاريخ فينفجر غطاء الإسمنت وتطوف المياه ويتحول إلى طوفان يهلك واحة آدرار بمن فيها،إلا قلة صالحة.لقد تحول السيل في يد الكوني إلى طوفان جديد، يطهر أديم الصحراء من الفساد والبغي ويتركها لمن يصلح لعمارة الأرض ليعيد دورة الحياة في الصحراء.فالماء يطهر الأرض من الظلمة والأشرار ويبقي القلة المؤمنة التي تعيد للحياة ألقها وإشراقها.هذه الموضوعة الأسطورية القديمة تتكرر مع قبيلة (أمنغاستن) وشيخها البطل غوما الذي تحرر من علية المكان وسلطة الأشياء وعاد إلى حياة التنقل والترحال" حرا طليقا كشعاع فجر يوم جميل.لعل الكوني يفترض وجود صراع أزلي بين العابر(الإنسان)و العمران(الواحة)؛ومن تجليات هذا الصراع رفض العابرين حياة الاستقرار.فوصية **آنهي** تقول لهم إن:"القبائل الصحراوية قدرها الرحيل". وظف الكوني الأسطورة بجمالية ثرة وتفاصيل روائية متميزة تغني الأسطورة وتثري الخطاب السردي وتمده بطاقات تعبيرية لا حدود لفضاءاتها. وقد لا نجانب الصواب إذا قلنا إن شعرية الرواية وجمالياتها تستمدان حضورهما المتميز عند الكوني من تضافر عناصر ومكونات كثيرة،لعل أبرزها يتمثل في التوظيف الإبداعي للموروث العام والصوفي والشعبي والديني والأسطوري والواقعي والعجائبي ... في كتابة جادة دؤوب تمكنت من التأسيس

لخطاب سردي حداثي أصيل يعيد الاعتبار للذاكرة الصحراء ؛ ولا يخوض في مهامه الاستلاب.

الشمس القاسية :

احتلت الشمس مساحة وصفية ومشهدية لا يستهان بها في أعمال الكوني، وقد تناولتها من جانبها المحرق المؤذي: " **انتهى السهل،وبدت"مساك صطفت"بصخور ضخمة محروقة بنار الشمس الأبدية.انتهى صفاء الصحراء الرملية الممتدة،المنبسطة الرفيقة بالعباد.وبدت عراقيل الصحراء الجبلية الغامضة**"(36). جدير بالملاحظة أن التعبيرات التي تصور الخصائص الجغرافية للمكان؛لا تنفصل عند إبراهيم الكوني عن الخصائص النفسية للعابرين.لقد وظف الكاتب لهذه المهمة معجما لغويا خاصا يتمحور حول فعل الحرق المستديم ،لقد غيرت الشمس معالم الأشياء تغييرا شنيعا وأكسبت أديم الأرض لونا اسود يبعث في النفس الشعور بالأسى والاكتئاب .إن هذا الفعل الشنيع الحاوي لدلالات التشويه و العذاب ؛يعيد للذهن صورة صقر. وماذا في حياة الإنسان ووجدانه وذاكرته أقسى من صقر؛وهاهي ذي في الدنيا،إنها الصحراء بشمسها المحرقة.

إن السفر في الصحراء في فصل الصيف نهارا يعد مجازفة لا تخلو من مخاطر، فإذا ما نجا المسافر من التيه و إغواء السراب اللعوب،وسلم من شراك الموت ظمأ ،فإنه لا محالة مغتسل بأشعة الشمس القاسية .

يشير الخطاب الروائي إلى أن الشمس في الصحراء تؤذي البشر،وتكبل طاقاتهم،وتمنعهم من الحركة.لذا تلفي كثيرا من العابرين المتمرسين يفضلون السفر ليلا في فصل الصيف،اهتداء بالنجوم،واتقاء لشر الشمس المستطير في موسم القيظ. :"**تعجرفت الشمس بأشعتها مع الأصيل،فعجز أن يفتح عينيه.الشمس بعد الشروق دائما ساخطة،متغطرسة انتقامية لا تنكسر شوكتها إلا مع الزوال**".(37)

فالشمس في الخطاب السردي تحتل موقع العدو المتغطرس ، الذي لا يتقن إلا البطش و الإيذاء للكائنات وقد قدمها الكاتب في سياقات متعددة تؤكد جميعها على أن الشمس تزيد الصحراء اتقادا وتوهجا وقسوة... فصل الصيف في الصحراء، قاس جدا،إذ تبلغ الشمس فيه ذروة الإيذاء،الأمر الذي تضطر معه الكائنات إلى الهجرة اتقاء لشر الشمس المستطير،و بحثا عن آفاق أكثر رواء وأمنا.فيستحيل الحيز المكاني إلى جحيم مقيم،وربع خال من عناصر الحياة وأسبابها."**كل شيء يهجر الصحراء مع اقتراب الصيف يبقى الخلاء يعاند السراب والسكون وشعاعات الشمس**"(38) .فتغدو الصحراء والحالة هذه،فضاء معاد منغلق و بلا ظل. "**استقرت الشمس في قلب الفضاء،وبدأت تتسلط على الكائنات،تدفق في الوادي فيض كألسنة النار وشب في حجارة الضفتين حريق.غرقت الشجيرات المتناثرة في امتداد القاع غمر سماوي،وتوثبت أغصانها في الفراغ برجف محموم كأنها تحاول الإفلات.في الحضيض،انكمش العشب،واستجارت حشائش أخرى بالأرض بحثا عن نجاة،ولكن التراب ازداد**

قسوة،و الأرض جفافا وجدبا وصلابة،فسرى في أطراف النبت شحوب،وتبخرت من أوراقها نداوة لم تنعم بها طويلا"(39).

تداخل في هذا المشهد عنصر القص و وصف المكان، و اندمغا معا اندماغا تضافريا لإضاءة عالم الرواية، و إضاءة جوانب المكان من مختلف جوانبه أيضا.وهناك أنسنة واضحة لمظاهر الطبيعة على نحو ما يتجلى من نسبة العديد من الأفعال الإنسانية المنسوبة إليها،فالشمس متسلطة طاغية. ومن شدة عجرفتها وطغيانها،تحاول الشجيرات المسكينة الهزيلة - الغارقة في اللهب،المرتجفة أغصانها من شدة الفزع الإفلات من عذابها،وأما العشب الشاحب فقد انكمش من فرط الرعب،في حين استجارت حشائش أخرى بالأرض بحثا عن نجاة،غير أن هذه الأرض القاسية القلب، لم تجرها من شر الشمس المستطير،فاستسلمت لمصيرها المفجع.

تعد الأنسنة،في رأي النقاد، من أروع القيم الجمالية في الفن، لكونها رؤيا فنية لا تخضع للمقاييس المنطقية، ولاتشابه الأحداث الواقعية، يضفي فيها الفنان صفات إنسانية محددة على الأمكنة والكائنات والأشياء وظواهر الطبيعة حين يشكلها تشكيلا إنسانيا، ويجعلها كأي كائن بشري تتحرك وتحس وتشعر وتتعاطف وتقسو؛حسب الموقف الذي أنسنت من أجله.

سلطة الريح :

الريح تمارس أسوء أدوارها ضد الإنسان في الصحراء، فهي تعد نذير شؤم، ويخشى الناس من إلحاحها وإسرارها.و يشير الخطاب الروائي أن ريح الجنوب قد أدت دورا حاسما في خراب حضارة واو الكبرى،لتي عرفت ازدهارا قبل مرحلة التصحر (أربعة آلاف عام قبل الميلاد) (40). **"استعان ريح الجنوب بالرمل اللعوب على إخفاء الواحة الغناء"**،(41) واو.. ولقد نسبت للريح الصحراوية أكثر الأفعال فجائعية، وهي حين تأتي، تأتي مجتاحة كاسحة، وتغطي معالم الأرض و تطمس كل آثار للحياة؛على نحو ما يتجلى في الملفوظ الآتي: **"سرت [الريح الغربية]بحقد لم تعرف له الواحة مثيلا. حقد لم يتجلى في عنف العجاج وحسب، ولكنه تبدى في كثافة الأتربة التي حملها الريح .فقد انفلت بعد المغيب بقليل كمارد الجن.وغزا الواحة بشراسة لم تعرفها حتى في حملات النهب التي تعرضت لها عبر تاريخها القديم.ظل ينوح نوحا موجعا طوال الليل فقرأ أهل العرفان في النواح شؤما"**(42) ما أضعف الإنسان في مواجهة هذا المشهد الصاخب الرهيب، مشهد الصحراء الغاضبة تجتاحها الريح العاتية ويزلزل كيان قاطنيها العجاج، إن هذه الريح بقدرتها التدميرية، تمثل إحدى أدوات البيئة الصحراوية، في قوتها الصراعية الطاغية مع الإنسان، فيغدو القيظ و الريح والجوع والعطش والقلق ... من الثوابت التي تمارس حضورها في روايات الكوني وقصصه القصيرة.

تنهض سلطة الطبيعة في كتاباته،إلى جانب حيوانات كالودان والغزال والضب والماعز و الإبل ...بوصفها عناصر جوهرية لإمكانية استمرار الوجود

في مواجهة طبيعة متقلبة المزاج على نحو أبدي. يتسع نطاق التأثير السلبي للريح فتقض على المسافر في البيداء مضجعه، بل تكاد تواريه التراب من شدة الأتربة المصاحبة لها: "**نهض وبدأ يزيح متاريس التراب من حوله.كان يتعثر ويترنح ويسقط ويعاود النهوض من جديد.تحرر من كثبان الرمال التي كادت أن تواريه التراب وهو حي.ثم شرع يحفر بيديه لإزاحة كثبان الرمال المحيطة بالجمل الباقي. يبدو أن الجمل المحمل بالأمتعة قد نفذ صبره ونهض أثناء الليل.ودحرجته الرياح تدريجيا**"(43).إن ضياع الجمل بفعل قوة الريح العاتية والمضللة،يعني ضياع صاحبه في متاهات البيد الممتدة على مرمى البصر. لقد شكلت الريح الصحراوية حضورا بارزا في نصوص الكوني،بحيث تغلغلت في ثنايا الأحداث والتفاصيل وتكاوين الشخصيات واللبنات التي بنيت منها .

آثار الريح الصحراوية :

لم ترتبط الريح بأي معنى حسن،ولم يعرف عنها أي فعل جميل،بل على العكس من ذلك فإننا نلفيها لا تحمل إلا عناصر الأذى للكائنات في الصحراء،لذا ترى الناس يخشون من إصرار الريح وإلحاحها؛في الماضي وبغية إيقافها،كان يتحتم التضحية بأجمل عذراء في القبيلة وهي عادة مشينة عارضها الشيوخ المسلمون،ووعدوها من بقايا عهود وثنية بائدة تنتفي والفطرة الإنسانية السليمة. لقد نسبت للريح أكثر الأفعال فجائعية وقسوة"**فقد تناقل الناس الأنباء التي تتحدث عن هلاك المواشي وتحطم أشجار النخيل، وزحف السيول الرملية الجنوبية على العين،وارتدام النباتات تحت الأتربة.وكان يرى الأهالي في زحف الرمال على**

العين بلاء أكبر لولا انشغالهم في تلك المهلة [التي وهبها لهم الريح] يتفقدون المفقودين الذين ذهبت بهم الريح إلى المجهول "(44) لقد حول الكاتب عنصر المكان إلى أداة للتعبير عن مواقف الشخصيات من العالم المحيط بها.

في فصل الحر ينتج عن وجود القيظ وريح الجنوب مناخ يؤلم النفس ويؤذيها إيذاء مبرحا فتصبح الريح لفحا قاسيا يشوي الوجوه:"**وهاهي أشعة الضحى الثاقبة تمتزج بعجاج الأرض منذرة باستقبال يوم قائظ**" (45)؟؟؟؟. وفي سياق آخر يعبر الكوني عن هذه الحال بأسلوب لا يخلو من عنف لغوي:"**استمرت الصحراء تتنفس القبلي والنار**"(46) . لقد رسمت للصحراء صورة غاية في البشاعة فهي،والحالة هذه، تشبه التنين، ذلك الحيوان الأسطوري الذي يتنفس النار ويحرق كل ما يصادفه في طريقه...

الريح تفقد الإحساس بالزمن، وغزوها شبيه بغزو النهر.إنها تغير معالم الأشياء وتفقد الصحراء توازنها فـ"**الصحراء هي اليد الوحيدة التي تحفر اليوم ما طمرته في رحلة الأمس**" (47)

تودي الريح إذا، دورا تدميريا،فهي تعمل على انتشار ظاهرة التصحر،وتسريع وتيرتها.لقد كان ورود التحرك الرملي حاضرا في كتابات الكوني، على نحو ما يظهر في قول إحدى الشخصيات :"**إذا استمر القبلي على هذه الحال، فإننا سنشهد قريبا قيام بحر الرمال العظيم في الصحراء الوسطى كما شهد أقدم أجدادنا قيام البحرين الرمليين العظيمين في شرق الصحراء**

وغربها"(48) ولكثرة حضور الريح في الصحراء، كثيرا ما كان يتساءل أهل الصحراء عن سر حضورها المقلق في هذا المكان المتسم بالشراسة؛ على نحو ما يظهر في تساؤل هذه الشخصية: "**فإذا علمنا أن الريح يحرث أرضكم، ويغير مجرى الوديان، ويقيم الروابي منذ سنوات،فماذا يعني هذا الغزو الملحاح في حكم شيخنا الحكيم؟**"(49) إننا نستشعر مركزية الحوارية الطامحة إلى استكشاف ومعرفة حقيقة الظاهرة الطبيعية والتي تبدو في نظر السائل غير طبيعية...

و إن كان للرياح الصحراوية حضور إيجابي في الصحراء فهو قليل جدا لا يكاد يذكر، بالقياس إلى الآثار التدميرية التي تلحقها الريح بالكائن والمكان؛ولعله يتمثل في تلقيح أشجار النخيل وتليين بعض الأمراض فقط.وتجدر الإشارة في الأخير إلى أن الغبار والعجاج يعمل في الصحراء على تضليل البصر وخداعه، مثل السراب،وإن اختلفت الطبيعة و آلية الحجب و التضليل ...

الظاهرة السرابية :

السراب من الظواهر الطبيعية الحاضرة في أعمال إبراهيم الكوني السردية ،والسراب كما،هو معروف حقيقة علمية من حقائق الفيزياء المناخية،وهو مجرد خداع بصري يصنع المشاهد الوهمية،ويسبغها بمقدار كبير من الواقعية.ذلك أن الشمس القائظة تصنع ،في تعاملها وانعكاس أشعتها على رمال الصحراء وطرقها، ما يعرف بظاهرة السراب التي التصقت بالبيئة الصحراوية وعرفت بها.إن الصحراء تصنع السراب والتيه الأوهام ... فهي ، على حد تعبير جبرا إبراهيم

جبرا ، أم الأوهام كلها. **"أنت لا تعرف هذه الصحراء.السراب يضخم فيها بعرة الإبل فيظنها الرائي إنسانا.والحجر الصغير الذي يحمل باليد فيخاله جبلا شامخا"**(50). السراب يمنح الوهم المميت،إذ يخاله الرائي حاضرا وهو غائب،ويحسبه بحيرات مياه وهو وهم يخدع الحواس التي تقوم بدورها بسحر العقل وإغوائه،لكن أبطال الصحراء يتحدون السراب اللعوب ولا ينخدعون - في في معظم الأسفار- بغمزه ولمزه.السراب أكثر الظواهر الطبيعية انتشارا في الصحاري،وأكثرها إشكالية،بسبب كمية الالتباس التي يطرحها وكمية الأشياء التي يوهم العين بوجودها الحقيقي غير القابل للشك، وتتجلى الإشكالية في أن يصبح المدرك بالحواس مصدرا للخديعة الإدراكية التي تسيطر على الوعي الذي يتراخى بفعل خضوع الجسد إلى عدد من العوامل الفيزيولوجية الطارئة كالعطش والحر الشديد،فيستسلم لحاسة البصر الخادعة في الحالة السرابية ...والسراب يضع الإنسان في ملتقى عدد من المطلقات الضدية،كالحياة والموت والارتواء والعطش،والثبات والحركة،والشك واليقين والوجود و العدم.كل هذه الثنائيات الضدية تجعلها اللحظة،أو الحالة السرابية تصل إلى حدودها المطلقة،بعدما يصل الإنسان إلى حد من الإعياء والعطش والشعور باقتراب الموت(51). قد لا نجانب الصواب إذا قلنا إن معظم الأعمال السردية التي اتخذت الصحراء موضوعا لها قد أشارت إلى الظاهرة السرابية.و أما عند الكوني فقد شكل السراب ظاهرة بارزة ارتبطت بتيمة الصحراء على نحو ما يظهر في الجملة الآتية: **"لم يسر به الظمأ بعيدا،فيرى السراب غمرا،والحريق حلما،والمصاب كابوسا عابرا..."** (52).ومن أكثر أنواع السراب شيوعا هو سراب الواحة،ذلك أن المسافرين في الصحراء

يمرون بتجربة السراب حين يرون بركة ماء وكأنها واحة غناء،ولكن حين يصلون إلى الموقع لا يجدون سوي الكثبان الرملية الجافة... - **"على سلطة السراب تمرد خيال وتبدى.ظل يعوم في ألسنة العرف الفضي الذي يغمر الأفق و يتلوى مع تموجات السائل الشيطاني اللعوب حتى قطعوا إليه مسافة أخرى.بدت الأرض الحمراء تتبين في العلامة فسأل الولد مشيرا إلى الأفق: هل هي واحة من صنع السراب أيضا ؟**

ابتسم الأب :

-حاول أن يمحوها ويمزقها ليصنع منها واحة من واحاته الشيطانية.ولكنه لم يستطع لأننا قهرناه بالعناد. هل هي واحة حقيقية ؟ إنها الرابية الحمراء .

هل اقتربنا من واو؟".(53)

يملك العابرون خبرات كبيرة،بحكم ملازمتهم الطويلة للصحراء،تمكنهم من الاحتيال عليها،والتعامل بحكمة وحزم وواقعية مع مختلف ظواهرها الغريبة كالسراب. يقترن ذكر السراب، في كثير من السياقات السردية،بحضور الشمس المحرقة،وذلك لرسم معالم مشهد صحراوي مثير و مفعم بالدلالات،التي تشي بقسوة المكان وغموضه و مدى الأخطار التي تكتنفه؛وبصورة أخص في موسم القيظ: **"سار به نحو التلال الغربية الجنوبية.صعدت الجنية عرشا،واحتلت قطعة النار قلب السماء،فسكبت على الأرض نارا،وتدفق في العراء السراب.غمر التلال**

في البعد فزعزعها و انتزعها ليرفعها في الفضاء مسافة،صيرها تسبح في الفراغ،و أقبل عليها و رفع في وجهها جيشا من الحجارة"(54) .

إن عالم الصحراء السرابي هش،خادع ومخاتل؛ترسم له الغشوات السرابية أفقا تضطرب فيه المعايير، فتنقلب الحركة سكونا و ينقلب السكون حركة؛من الناحية الحركية لا يوجد سراب ساكن،فالسراب متحرك بطبيعته الواقعية"؛وهنا تكمن خطورة السراب،إذ أنه يكون ملازما ومصاحبا للمسافر في المفازة وكأنه مصر على الإيقاع به في شراكه...

يأنسن الكوني السراب بمنحه صفة تلازمه وهي (اللعوب)؛إن هذه اللفظة تدل على صفة ذميمة وقبيحة،تطلق،عادة،على كل شخص مراوغ، محتال، خداع ؛الذي يتمسكن ليتمكن؛و يستدرج الآخر للنيل منه.قال الراوي:"**انطلق،سرح وراء السائل اللعوب الذي يتدفق في الخلاء،لاستدراج الغرباء وأصحاب الجهالة**" (55)فالسراب ظاهرة طبيعية في الصحراء،تزخر بعدد كبير من المحمولات النفسية والبدنية والكابوسية،والحلمية. والسراب له قدرة على التخييلية،وهو في الرواية يشكل تخييلا على التخييل"(56) .

- هل السراب لا يمنح رائيه سوى الغواية والخداع والوهم المميت؟ !

- ألا يمكن أن يعلم الصحراوي الحزم الشديد والمقاومة المستميتة الباسلة والتوفز الدائم والتعامل بواقعية مع حقائق الأمور،و لا يقتل في نفسه الأمل في الوصول إلى محطة الوصول المرغوب فيها؟

...قال زعيم القبيلة :

- **أريد أن أقول إن الينابيع إذا جفت فابحث خلف السراب عن مفاجأة.الصحراء دائما تخبئ مفاجأة في مكان ما.ستجد بئرا و ربما بحيرة ".(57)**

يجدر بنا أن نتساءل في الأخير:ألا يمكن أن يكون الكوني قد وظف شعرية السراب للتعبير عن ذلك الوهم الأبدي الذي يدفع العابرين إلى التيه في البيد دون توقف ، أي يرمز بالسراب إلى عبثية البحث عن المكان الضائع "واو"؛ الذي يصل إليه الخيال ولا يبلغه الرجال؟ فهذا وجه آخر للصحراء رسمه فنان لا يقف من الظواهر الطبيعية في الصحراء عند السطح،بل بغوص في أعماقها، يفلسفها، ويدفعنا إلى اكتشاف الأسرار والمحمولات الدلالية الكامنة فيها.

الهوامش و الإحالات :

1. إبراهيم الكوني. التبر ص 70.
2. إبراهيم الكوني. أنوبيس.م ع دن بيروت،بيروت ،ط1، 2002 ص 112
3. الكوني ديوان النثر البري ص 7
4. ينظر صلاح صالح.قضايا المكان الروائي.دار شرقيات، القاهرة، ط1، 1997. ص 265.
5. الكوني " رباعية الخسوف(1) البئر، دار التنوير للطباعة والنشر، قبرص، ط2 1992 ، ص150
6. الكوني.الدنيا أيام ثلاثة ص 187.
7. الكوني الخسوف1،البئر ص 153
8. الكوني.عشب الليل.م.ع.د.ن بيروت ط1 1998 ص42.
9. محمد بوعزة.المتخيل الروائي في الشراع والعاصفة.مجلة الفكر العربي،شتاء2000،العدد90،ص259
10. الكوني. الخسوف1، البئر. ص 211
11. الكوني الخسوف الواحة 131

12. ينظر سامح الرواشدة.فضاءات الشعرية.المركز القومي للنشر،الأردن.1999،ص14
13. الكوني.الخسوف 3أخبار الطوفان الثاني ص 141
14. الكوني.م.ن.ص 142 .
15. الكوني. نزيف الحجر.الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع - ليبيا ص 79 .
16. الكوني. الخسوف1 البئر ص151 .152
17. الكوني .البحث عن المكان الضائع م.ع د.ن بيروت ط1 2003 ص 38
18. الكوني بر الخيتعور ص 118
19. الكوني. الخسوف1، البئر ص 80 - 81
20. الكوني. أنوبيس.م.ع.د.ن بيروت ط1 2002-2003 ص 112
21. الكوني. أنوبيس.م.ع.د.ن بيروت ط1 2002-2003 ص 252
22. الكوني.واو الصغر.ص 23.
23. الكوني بر الخيتعور ص 64.
24. الكوني البحث عن المكان الضائع ص 11
25. الكوني. المجوس1، ص 289.
26. الكوني البحث عن المكان الضائع ص 24.
27. الكوني بر الخيتعور ص 62-63
28. الكوني . الخسوف2 الواحة دار التنوير للطباعة والنشر، قبرص ط2 1991 ص 7
29. الكوني. المجوس 1 ص 390
30. الكوني .الفزاعة ص 169
31. الكوني البحث عن المكان الضائع ص 38.
32. الكوني الخسوف1، البئر ص 215.
33. الكوني الخسوف1 البئر ص ؟؟؟؟؟؟؟؟
34. الكوني نزيف الحجر الدار الجماهرية للنشر والتوزيع - ليبيا ص 154.
35. ينظر. بوشوشة بن جمعة. التجريب وارتحالات السرد الروائي المغاربي ط1، 2003 ص 214.
36. الكوني. نزيف الحجر. ص 86-87
37. الكوني. التبر.ص 159.
38. الكوني. نزيف الحجر، ط3 ص 124
39. الكوني. بر الخيتغور. المؤسسة العربية للطباعة والنشر بيرون. ط1/ 1998. ص 124
40. محمد سعيد القشاط.الطوارق عرب الصحراء الكبرى.مركز دراسات و أبحاث شؤون الصحراء، ليبيا، ط2، 1989
41. الكوني.السحرة ج1، 136
42. الكوني البحث عن المكان الضائع ص 247.
43. الكوني.الخسوف1 البئر ص 153.

44. الكوني.البحث عن المكان الضائع ص 248.
45. الأسماء المتغيرة ص 11
46. الكوني .المجوس ج 1 ص 97.
47. الكوني المجوس ج1 ص 261.
48. م.ن. ص 460.
49. م.ن.ص 407.
50. أحمد ولد عبد القادر.الأسماء المتغيرة.دار الباحث للطباعة والنشر،بيروت،ط1 ،1041ه /1981 ،ص69
51. صلاح صالح .الرواية العربية والصحراء. منشورات وزارة الثقافة، دمشق 1996،(د ط)، ص 202-203.
52. الكوني. بر الخيتعور ص 136.
53. الكوني. ديوان النشر البري (م.ق). دار التنوير للطباعة والنشر.ط1، 1991 ص 26.
54. الكوني. بر الخيتعور ص 152.
55. الكوني. الدمية ص 134.
56. صلاح صالح دراسة المكان الصحراوي في فساد الأمكنة، فصول المجلد12. ع3 خريف 1993.
57. الكوني. الخسوف 3 أخبار الطوفان 2 ص 141.